الفُرْصَةُ الأَخِيرَةُ

تمهيد

إنها نفس رقعة الأرض التى شهدت صلاتها، وسجدت عليها، وتركت دعائها بالهداية، شهدت أيضا آثامها وذنوبها وتركت آثار شيطانها.

من أنا؟

وكيف حدث؟

وما هذا المكان؟

محراب لعبادة الله أم وكر لوسوسة النفس ؟

وهل الشيطان انتصر ام مازال لديها فرصة أخيرة للحياة

لم أعد أندهش من أى شئ فى هذا العالم العشوائى وليس لدى الوقت ولا العمر لكى أحاول استعادة توازنه وإعادة ترتيبه، فأنا قد أصبحت عشوائية رغما عنى.

أفرغت منار تلك الكلمات على ورقة بيضاء كبيرة، وسطرتها بخط كبير وواضح، ثم قامت بلصقها على باب حجرتها من الداخل حتى عند قراءتها تستعيد توازنها إذا فكرت فى المثالية مرة أخرى، فبالرغم من عملها كصحفية وأنها بصفة يومية ترى عجب الُعجاب من البشر من أقوال وأفعال إلا أن بداخلها شئ من النقاء مازال يلح على عقلها وقلبها، ولكنها أدركت متأخراً أن

obeikan.com

حساباتها لابد وأن يعاد ترتيبها وتقييمها وفهمها، وكل ذلك بسبب هدى التى تمردت على الجلباب الأسود والمنديل المشجر والعطر الرخيص الثمن وارتدت ملابس باهظة الثمن تليق بجسدها الثائر والمكتمل بالأنوثة والعطر الجاذب للرجال بالحلال - كما تعودت أن تقول دائما - وعرف وجهها طريق الروج والتواليت والمكياج الكامل، كل هذه النهايات الخاطئة تُخفى حقيقة الماضى.

عادت منار بالذاكرة إلى الوراء قليلا عندما قابلت هدى المثيرة للجدل لسنوات طويلة للمرة الأولى والتى لم تكن الأخيرة، لو اختارت منار عنوانا مثيرا تكتبه فى جريدتها عن هدى لكان كالتالى:

هدى رمز مثير للعطاء، الضعف، القوة، العذاب، السيطرة، وكل هذا تكمن فى امرأة غامضة.

ولكن منار فضلت أن تكتب عن هدى التى تحولت وتبدلت بسبب شياطين الإنس، منار لم تنس بريق عينى هدى وهى تخبرها عن مجالستها للشيطان وقالت :

- لا تحاولى أن تعبثى بالشيطان و تسخرى منه وتُجلسيه على مقعد قزم لا أحد يراه؛ لأنه يشتعل غضبا، و يطلق شررا كالقصر من ضيق عينيه ويلسع ظهرك بسياط لسانه.

وينتفخ ويتوهج كِبراً وغروراً، وينظر إليك بمنتهى الدونية.

والنتيجة أنك ستندم من داخلك، وتذرف دموعا من مسام جلدك، وتخرج روحك بطيئة من حلقومك وكأنك تحتضر.

لا تتحول إلى مسخ من أجل من مُسخ روحه قبلك، ولم يعد بشراً كما كان.

منار قررت أن تقدم هدى للمجتمع كحالة أو كظاهرة تستحق الدراسة، رحلة قصيرة تُكتب على الورق ولكنها طويلة بالأيام والشهور وسنوات عجاف وأخرى خُضر.

وكالعادة الحيرة دائما فى التقديم، فى البدايات، ولكنها لم تحتر لفترة طويلة، إذ أخذت على عاتقها تقديم قصة هدى كأنها ورشة سيناريو، فى جلسة اعتادت عليها كل شهر، ستجلس منار مع د. محمد استشارى الطب النفسى بصحبة الكاتب والروائى أ. أيمن، وكالعادة سيحدث صراع ذهنى وتفسيرات علمية واجتماعية فى سهرة قد تمتد لساعات طويلة إلى منتصف الليل.

(1)

أيمن: يبدو أن الأمر مختلف هذه المرة.

محمد: بالفعل، مكالمات هاتفية سريعة، حضور ورشة سيناريو قبل موعدها عن كل مرة، ومن الواضح غياب الباقى، عدا عم نسيم المسئول عن تسجيل الجلسات، ما الأمر يا منار؟

منار: لاشئ، تجربة جديدة مررت بها وأخفيتها عنكم، تجربة غامضة وتحتاج إلى تشريح نفسى واجتماعى، كان من الممكن أن أكتب عنها كنوع من التحقيق الصحفى وينشغل الناس بها لعدة أسابيع، وينتهى الأمر، ولكننى أردت توثيقها من عدة زوايا، لذلك جمعتكم مبكراً، فالأمر يحتاج لمزيد من الوقت، إلا لو كان لديكم أية موانع.

أيمن: لا يوجد أى انشغالات اليوم، من مميزات جلسات ورشة سيناريو، توليد قصص سيناريوهات من الواقع والمخيلة، وتشريح القصص و تفكيكها وإعادة تركيبها فى مشروعات سيناريوهات مرشحة للظهور فى أعمال سينمائية أو تليفزيونية، ولكن يبدو أن الأمر مختلف هذه المرة كما قلت سابقا.

منار: من الممكن أن نقول إننى تأثرت جدا بـ هدى.

محمد: بدأنا العصف الذهنى، من هى؟

منار: أنت علمتنى بأن لكل إنسان منا جذور تمتد من بيئته ويتشكل عقله الظاهر والباطن من تلك البيئة، لذلك سألت عن طفولتها ونشأتها قبل أى تفاصيل أخرى.

أيمن: نعم، بداية جيدة، الكاتب الجيد لابد له من معرفة ما وراء كواليس شخصيات رواياته ولو بالإشارة من بعيد، أو بالعودة فلاش باك إذا لزم الأمر لتفسير لماذا تصرف هذا الشخص هكذا فى الموقف كذا...الخ.

محمد: النفس البشرية تحمل بين ثناياها ألغازا عديدة، ونظل نفتش ونبحث عن الأسباب تماما كعمال المناجم فى البحث عن الذهب والماس.

منار: بالفعل، هدى ولدت فى بيت ضيق حجرتان وصالة، تحملت المسئولية لأنها كانت البكرية، وقدرها أنها حُشرت مع ثلاث فتيات فى حجرة متوسطة المساحة وثلاث أولاد ينامون فى الصالة، يرعاهم جميعا أب فقير وأم لا حيلة لها غير الشكوى آناء الليل وأطراف النهار، لم يجد الأب حلاً إلا السفر للخارج، وهذا المظهر الخارجى أمام الناس، إلا أن الحقيقة أنه هرب، أين هرب؟ لا أحد يعلم، هل طلّق زوجته؟ لم يحدث، هل ما زال حياً؟ لا أحد يعلم، وكانت تلك بداية مشكلة هدى.

أيمن: أعتقد أنها ستنتقم من الرجال.

منار: لا تتعجل الأمور يا كاتبنا العزيز، الأحداث أقوى من أن نقفز فوقها.

أيمن: اعتذر.

محمد: لا داعى للاعتذار، بديهيا أنها ستنتقم، ولكن من الواضح أن الانتقام سيكون مُركباً وليس بسيطا.

منار: أحسنت د.محمد، الانتقام سيكون عنيفا لنفسها وللمجتمع.

أيمن: من أين سنبدأ؟

منار: لن نبتعد كثيرا، سنبدأ من حيث وقفت أمام المرآة ولاحظت أنها تحمل أنوثة طاغية وقليل من الجمال، ولكن مع بعض الدلال والليونة فى اللسان مع ضحكات مستترة، تصبح لها جاذبية خاصة بها، جاذبية أوقعت ضحايا فى شباكها.

أيمن: ضحايا! وليس ضحية واحدة؟ الإثارة واضحة من البداية.

منار: ولكنها بداية غريبة، ماذا تتوقع؟

أيمن: اتوقع عملها كخادمة فى البيوت ثم يقع فى حبها أحد الأثرياء الذين لديهم فراغ فى حياتهم ومن ضمنه الفراغ الجنسى ويحاول إغرائها بالمال وخاصة انها مُعدمة مادياً، ثم ترفض ولكنه لا يمل حتى يتزوجها زواجا عرفيا فى السر وإما أن يطلب منها الحياة معهم فى نفس البيت أو يؤجر لها غرفة جاهزة للقاء الأسبوعى.

محمد: بداية تقليدية وحدثت كثيرا وستحدث، ولكن لا اتوقع ان تكون هذه البداية.

منار: بالفعل، لقد تزوجت من عجلاتى، فقير، بليد، أناني، وبالرغم من اندهاش الجميع من حولها حتى الأقرباء منهم.

أيمن: اعتقد انها غير متعلمة أو حاصلة على الشهادة الابتدائية، بالتالى لم يشفع لها جمالها وجاذبيتها، فى شغل القلوب، العقل هو المسيطر فى تلك المواقف.

محمد: أضف إلى كلامك أن حالتها الاجتماعية تستدعى التخفيف من أحمال الأم، وخاصة بعد هرب الأب، وتستقر فى أعماقها جملة عتيقة ظل رجل ولا ظل حيطة.

منار: بالفعل، كلاكما على صواب، قطار تعليمها توقف عند المرحلة الإعدادية، وعملت بالتمريض فى احد العيادات القريبة من المنزل، وبدأت تلفت انتباه الآخرين فى الحارة القهوجى والمكوجى وصاحب المكتبة، ولأنها تعرفهم جميعا إلا أنها اختارت العازب فتحى العجلاتى، تزوجته على مضض وكانت الخلافات كثيرة جدا لدرجة أنها طُلقت، ولكنها عادت لأن لديها طفلا منه ورفضت أن تربيه بمفردها، يمضى عامان على زواجهما، والنتيجة طفلان، حياة بائسة، وكأنها تعيد نفس سيناريو الأحداث القديمة بكل تفاصيلها وأدوارها وظروفها لأبيها وأمها، ولكنها اختارت هى نهاية مختلفة غير ما انتهت العلاقة بين والديها.

أيمن: ماذا فعلت؟

محمد: طلبت الانفصال النهائى بعد أن وجدت من يستطيع من رفع مستواها الاجتماعى.

منار: فى الحقيقة، إنها هربت! ولكن كيف؟ ما رأيكم فى الإجابة بعد أن نأخذ استراحة ونعمل على تجديد خلايا المخ وتنشيطه بأكواب من الشاى الساخنه

(2)

لا تحاول أن تعبث بالشيطان وتسخر منه وتجلس ذاته المريضة على مقعد قزم لا أحد يراه، لأنه يحترق غضبا و يطلق شررا كالقصر من ضيق عينيه ويلسع ظهرك بسياط لسانه، وينتفخ ويتوهج كِبراً وغروراً، وينظر اليك بمنتهى الدونية، والنتيجة أنك ستندم وتتحطم من داخلك، وتذرف دموعا من مسام جلدك، و تخرج روحك بطيئة من حلقومك وكأنك تحتضر، لا تتحول إلى مسخاً من أجل من مُسخ روحه قبلك، ولم يعد بشراً كما كان.

محمد: رد فعل غير متوقع، هاهو دفتر الملاحظات وهاهو القلم، وأقوم بتسجيل ملاحظات كأنها مريضة عندي، ومن الواضح أن الوقت مازال مبكرا.

أيمن: ألديك تفسير علمى لهذا الموقف؟

محمد: ليس لدى أى تفسير كامل إلى الآن ، فمازال هناك تفاصيل غامضة، و كالعادة سنحاول ربط الأحداث والتفاصيل.

منار: أرجو الصبر فى تفسير شخصية هدى، هدى هربت من بيتها بعد أن تعرفت على عراف.

أيمن: عراف؟

منار: من خلال عملها فى عيادة النساء والتوليد - واعتذر عن نسيانى هذه المعلومة- تعرفت على العديد من الأسر والنساء، وأيضا الرجال، كانت تبحث عن باب الخروج من الفقر الذى لازمها طوال حياتها، ولأنها أنثى وامرأة متزوجة فقد كان دور الهرمونات الأنثوية كبير فيما بعد، منذ أن وقعت عيناه على تفاصيل جسدها، اقترب منها ذاك الرجل وعرف الكثير

عنها ومع المكر والدهاء خطط لها خطة عجيبة لم تخطر على بال بشر، بل اعتقد أن الشيطان نفسه وقف بعيدا محتارا لما رأى.

أيمن: ماذا فعل هذا الدجال؟

منار: اصطحب زوجته إلى عيادة النساء، ومنذ أن وقعت عيناه على هدى حتى أطلقت بريقا عجيبا شعرت به هى نفسها وكأنه يخترق كل خلايا جسمها، و بعد عدة زيارات أخذ رقم هاتفها وكانت المفاجأة بالنسبة لها.

أيمن: طلب منها الزواج قطعا.

منار: ليس له، إنما للثرى الذى يعمل لديه منذ سنوات بعيدة، وكانت الخطة ببساطة أنها ستعيش معه فى قصره البعيد عن هذا الوباء كممرضة أمام الناس وكزوجة بعقد عرفى أمامه، وأحد الشهود وبأنوثتها تستطيع أخذ ما يمكن أخذه قبل وفاة هذا الكهل الذى تعدى الثمانين.

محمد: فثارت على زوجها وطلبت الطلاق لكى تهرب فيما بعد.

منار: إطلاقا، هربت وهى مازالت زوجة للعجلاتي، وستصبح زوجة للرجل الثرى أيضا فى نفس الوقت فى السر.

أيمن: .....

محمد : .....

منار: فى علم النفس، الصمت خلال بعض اللحظات يعبّر فى الحقيقة عن أشد مرحلة من مراحل الانفعال...

محمد: بالظبط، كيف تجرؤ على فعل هذه الجريمة؟!

أيمن: لا دين ولا أخلاقيات اجتماعية تسمح بذلك.

منار: المهم أنها أخبرت الدجال أنها ستتزوج بالحلال، وبالفعل أشرقت الشمس على الحارة التى تسكن فيها ولم يبق لها أى أثر، هربت مع الدجال بعد أن وعدته بإعطائه ثلثى ما يقع تحت يديها من مجوهرات وأموال.

محمد: غير معقول!

أيمن: تصرفات ناتجة عن الجهل التام بكل شئ.

منار: وما خفى كان أعظم، من يعزمنا على الغداء اليوم؟

(3)

وبعد أن تملأ البطن وينتهى الضياع تبدأ تأوهات القلب والجسد.

محمد: أكاد توقع ما سوف يحدث، يموت الرجل الثرى وتنال ماتريده وتعود إلى عالمها، ولكن بنوع من السيطرة، وتؤلف أى قصة ويصدقها الجميع عدا زوجها، وتدخل معه فى عراك طويل وتنتهى بالطلاق و...

أيمن: وتبحث عن الحب القديم إذا كان موجودا أو تبحث عن حب جديد وعالم آخر، وخاصة أن ضميرها مات بعد الجريمة التى تستحق عليها السجن.

منار: حسابات هدى كانت مختلفة، الزواج كان عرفيا والزوج لايحتاج جسدها، كان فى حاجة إلى العطف والحنان فقط، لم يحدث معها أى معاشرة جنسية على الإطلاق، وبالتالى فهى ممرضة بدرجة زوجة سرية، ما المانع؟ حزنها فقط على الطفلين اللذين تركتهما بدون داع.

أيمن: ثم؟

منار: حدث ما لم يخطر على البال، وليس من ضمن الخطة التى رسمتها مع شيطان الإنس، قلبها نبض بالحب فجأة وجسدها احترق بنار الاشتياق، وخاصة أن هناك من قام بغزو قلبها ولديها استعداد كامل لاستباحة جسدها.

محمد: شاب موجود فى نفس القصر؟

منار: ابنه، شاب يصغرها بقليل، ولكنه عاق، لم يكن مع وفاق مع أبيه، ودائم السفر والسهر، وعرفت أن لديه شقة يملكها و يعيش فيها ولكنه كل فترة يذهب لزيارة والده بناء على طلب عمته لأن والدته متوفاة.

أيمن: ووقعت فى حبه وهو اشتهى جسدها و بقى اللقاء المرتقب بعد عدة محاولات بين القبول والرفض.

منار: وبالحلال!

محمد: أى حلال؟

منار: تزوجت الابن بالحلال

محمد: مستحيل.

أيمن: عبث.

منار: وفى كامل وعيها، كما أخبرتكم من قبل حسابات هدى مختلفة عن حسابات الحياة الطبيعية، لقد استسلمت للشيطان، وبدون علم الدجال كانت تذهب صباحا للشاب الثرى أو زوجها وقد تزوجت بعقد عرفى أيضا وبعد الظهر تذهب إلى القصر كممرضة وبالليل الزوجة الحنون للرجل المخدوع.

محمد: إنها تنتقم.

ogelkan.com

أيمن: مِن مَن ؟

محمد: من نفسها.

منار: هل لديك تفسير؟

محمد: Repetition Compulsion

وهذا يعنى التكرار القهري، بعض الناس لديهم نزعة شديدة وميل غريب لتكرار بعض التجارب المؤلمة فى حياتهم، ولها عدة أسباب، وكل سبب قد يكون منفردا عن الآخر، ولكن فى حالة هدى، الأسباب تقريبا مُركبة كما أخبرتنا أ. منار فى بداية الجلسة، فى البداية تزوجت من رجل يشبه أباها فى كثير من التفاصيل، بليد، مغلوب على أمره، فقير، ولكن كانت تريد نهاية مختلفة، كانت تريد مَن يهتم بها، وفى نفس الوقت كانت لديها فى عقلها الباطن فكرة أنها لا تستحق الاهتمام، فقيرة، ليست معها شهادة جامعية مثلا، الأب وجوده وغيابه كان مؤذيا لها، وبالتالى بحثت عن نفس مواصفات الأب وشئ من اثنين: إما يحدث إحلال لهذه الفكرة أو يؤكد السيناريو القابع فى داخلها، وبالفعل وجدت نفسها كأمها، وخافت أن يهرب زوجها، مثلما فعل أبيها، ولكنها هى من ذهبت بإرادتها وبكامل وعيها للبحث عن إحساس مزيف، إن لها السيطرة على الأمور والتحكم فى الأحداث، و سرعان ما شعرت بأنها ضحية، فجسدها ثائر وقلبها ينبض ولها جاذبية تجاه الرجال، لماذا إذن حياتها بائسة؟

وهبت نفسها للطبيعة أن تتحكم بها، وجمعت بين الأزواج الثلاثة، ولكن الأخير كانت تنتقم من نفسها ومن ضعفها السابق ومن أبيها وعادات وتقاليد وأعراف المجتمع ككل، فى أعماقها تبرر خطيئتها بأنها ضحية، وتستحق الرحمة.

أيمن: تفسير منطقى، ولكن هناك أسئلة تحوم حول عقلى؟ هل الابن علم بأنها كانت متزوجة من قبل؟ بالتأكيد سيعرف أنها ليست آنسة، يوجد أمر غير مفهوم.

منار: وهنا جاء دور العراف أو الدجال أو الشيطان الأعظم.

(4)

كل ما هنالك، أننى هربت من نفسى، واكتشفت لاحقا أننى تحولت إلى قطعة قماش قابلة للشد، فترهل وتمزق وضاعت هويتي، فأنا فى أشد الحاجة للعودة مرة أخرى إلى طبيعة قماشى العادية، فقد كنت سعيدة بكونى إنساناً عادياً، غير متكلف ولا مزهو بزينة، والعودة للوراء شئ شاق، كمن يبحث عن أوراق قديمة فى سرداب عميق فى ليلة ظلماء، وشعاع القمر لا يُسمن ولا يُغنى من جوع، هل تعلمين يا عزيزتى ماذا فعلت؟ لن تصدقي، فقد وضعت قدمى فى إناء بلاستيك كبير، به ماء وملح، فقد قرأت أن الملح يكسر ويدمر كل الموجات السلبية المحيطة بالإنسان، أعلم أنكِ لن تصدقي، ولكن هذا ما حدث.

منار: هل نفتح مجال التخيل فى الأحداث التالية؟

أيمن: فكرت كثيرا وقت الاستراحة ولم أجد إلا أن تخبره بانها تزوجت سابقا وانفصلت عن زوجها، حل تقليدى ولكنه لن يؤدى بالغرض.

محمد: الشيطان لن يكون لديه حل تقليدى.

منار: بالفعل، هدى لم تستلم سريعا لهذا الشبق الجامح الذى اعتراها، فلابد الابن أن يقع فى غرامها تماما ويُصاب بالعمى تجاهها، وخاصة أنها تحولت تماما عن ذى قبل، المال صنع منها هانم، عطور تأخذ بالألباب، إغراء جسدى يسيل له اللعاب، رفضت كل الإغراءات إلا كما قلنا بالحلال،

حتى جاء الرجل الذى يتقاسم معها ثرائها بفكرة خبيثة، سيذهب إلى الإبن يخبره بأنها من حارة فقيرة وأسرة شديدة الفقر وأن عليها جن عاشق، كما يحدث فى تلك الأماكن الفقيرة فى كل شئ، وهذا الجن لكى يخرج منها، له طريقان: إما من عينيها وتُصاب بالعمى أو من فرجها وتفقد عذريتها، وقطعا أهلها رفضوا أن تصير عمياء أو تذهب عذريتها إلا بعلم زوجها المستقبلى، وهذا سر عميق لا أحد يعرفه إطلاقا، فإذا أردتها زوجة لك لا أعتقد أنها تريدها عمياء وخاصة أنه زواجا عرفيا.

أيمن: ووافق؟

منار: ولمَ لا؟

محمد: زواجاً عرفياً مؤقتاً لا نية لبناء أسرة ولا إنجاب أطفال وهى تحبه وهو يريد جسدها فقط، مساومة شيطانية من الثلاثة.

أيمن: ذهنى تعب، وبعد؟

منار: كل شئ سار على ما يرام حتى قال القدر كلمته، بمحض الصدفة والابن يعبث فى دولاب زوجته لكى يترك لها مبلغا من المال وقع بين يديه قسيمة الزواج، فى البداية ظن أنها له، ولكنه قرأها مراراً وتكراراً ثم أبلغ الشرطة.

أيمن: اكتشف ماذا؟

منار: كانت قسيمة الزواج الخاصة بأبيه، وجد اسم زوجته ووجد اسم الزوج لأبيه بكامل البيانات، عندها علم أن زوجته هى نفس زوجة أبيه، وكانت فرصة ذهبية للتخلص منها والطعن فى عقل والده بفعل لا يليق به فى مثل هذا العمر، ودخلت السجن.

أيمن: من أين لكِ بهذه القصة؟

منار: قرأتها فى أرشيف الجرائم الغريبة فى جريدتنا، ولكن لم ينتبه له الكثير، وبحسب عدد سنوات السجن فإن هدى ستخرج قريبا إلى الحرية وقمت بعد تعب وجهد شاق بزيارتها عدة مرات، كانت متحفظة نوعا ما، ومع الوقت روت لى كل شئ.

محمد: هل تستطيعين وصفها؟

منار: بالمقارنة بصورة قديمة لها، أصبحت أكثر نحافة، عيناها انطفأت تماما، جاذبيتها لم تعد لها وجود، علم زوجها بما فعلت وأرسل ورقة طلاقها فى المحكمة، وأفهم طفليه انها توفت فى حادث تصادم، وعائلتها تبرأت منها تماما، ومع ذلك لمحت من كلامها شيئا غريبا.

محمد: بدون مقاطعة كلامك، عقلها مازال مشتعلا ويعمل بكل قوة، وبعد خروجها ستبحث عن زوج أو ضحية جديدة، وقد تسافر إلى الخارج، من خلال علاقات أقامتها مع بعض نزلاء السجن.

منار: بالفعل، إنها تبحث عن الفرصة الأخيرة لاستكمال حياتها.

تامر علي

obeikan.com